



13/01/2020 مقالات وآراء

موعد الفراق النهائي بين بوتين والأسد كما يبدو لم يعد بعيداً : مقال رأي لساطع نور الدين

لم يقطع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين "شعرة معاوية" في علاقته الغامضة مع الرئيس السوري بشار الأسد، لكن زيارته الاخيرة الى دمشق الاسبوع الماضي شددت تلك الشعرة الى الحد الاقصى، الذي ما عاد يسمح بالحديث عما يجمع بين الرجلين، بل فقط بالبحث عن موعد الفراق النهائي بينهما، وهو كما يبدو لم يعد بعيداً.

الرئيس الروسي لن يترك موسكو قريباً، أو على الاقل قبل العام 2024 موعد إنتهاء ولايته الرئاسية الحالية الرابعة. لكن الرئيس السوري لن يحصل بالتأكيد على ولاية رئاسية رابعة من سبع سنوات تبدأ في العام 2021 وتنتهي في العام 2028. والارجح أنه يمكن أن يصبح مقيماً في العاصمة الروسية، وبالتحديد في شقة فخمة في أحد أبراجها السكنية الفاخرة التي يمتلك آل الاسد وأقاربهم عدداً منها.. أو في فيلا لجؤ سياسي رسمي في إحدى ضواحي موسكو.

لكن هذا التقدير يتعارض مع حقيقة لم يجد لها أحد من الدبلوماسيين الروس ولا العرب ولا الغربيين تفسيراً: كيف يمكن ان يقيم في مدينة واحدة رجلان لم يتمكنوا من التقريب بين شخصيتيهما، ولم تفلح السنوات الاربع الماضية من القتال المشترك على جبهات واحدة في إزالة مصادر الشك والارتياح المتبادلة، ولا في تغيير إحساس بوتين الدائم بأنه تسلم من إيران رئيساً سورياً لا يمكن الوثوق به، ولا بكفاءته من جهة، مثلما لا يمكن في المقابل السماح بدفعه الى الحزن الايراني بشكل يثير غضب إسرائيل وحنق العرب وقلق الغرب.

بعض الغرب كان يظن أن الاسد قادر على السير طويلاً على الحبلين الروسي والايراني معاً. وهذا بالضبط ما فعله في السنوات الاربع الماضية، او بالاحرى هذا ما سمح به الجانبان الروسي والايراني معاً، عندما كان النظام السوري كله على مسافة أسابيع من السقوط، حسب كلام رسمي صادر من طهران ومن موسكو. لكن الامور تغيرت الان، بعدما بات حبل النجاة الايراني مهدداً بالانقطاع في اي لحظة، وعندما عبر بوتين من دمشق بالذات عن الكيمياء المفقودة مع الاسد بشكل صارخ، ولوح بقرب موعد الفراق.

الصورة كانت مدمرة: بدل ان تشهد زيارته الاولى الى دمشق، إستقبالاً رسمياً حاشداً على المطار، يشمل جميع بروتوكولات العلاقة الشرعية بين دولتين، وبين رئيسين يسيران معاً على السجاد الاحمر، وينتقلان الى القصر الرئاسي السوري لإجراء محادثات رسمية بحضور وفدين رفيعي المستوى، تعقبها خلوة ثنائية مغلقة بينهما، يليها مؤتمر صحافي مشترك، او على الاقل بيان متفق عليه يصدر بإسم البلدين ويحفظ في وثائقهما الرسمية.. حرص بوتين على ان تأخذ رحلته طابع السياحة العسكرية والدينية لعاصمة تديرها وتحميها وتشرف عليها القوات الروسية، التي لا تعترف بسيادة الدولة السورية او شرعيتها أو حتى وجود رئيس لها.

كانت تصفية حساب روسي قديم مع بشار الاسد الذي تعامل منذ اليوم الاول مع التدخل العسكري الروسي في خريف العام 2015، بوصفه هدية يقدمها لروسيا الباحثة عن دور عالمي ونفوذ متوسطي وحضور مشرقي، وليس خشبة خلاص توفرها روسيا لنظامه. وعلى هذا الاساس ظلت إيران خياره الاول والافضل، وحصل الايرانيون على مكافآت أكثر من حجم تقديماتهم وتضحياتهم، وأكثر بكثير من المكافآت التي حصل عليها الروس. كما أن الاسد وشركاؤه في طهران رددوا طويلاً رواية غير دقيقة عن ان التدخل الروسي ما كان ليتم لولا الطلب العاجل من القيادة الايرانية الذي حمله يومها الجنرال الايراني قاسم سليماني الى موسكو، التي إستجابت على الفور وحركت



في اليوم التالي قواتها الجوية والبحرية والبرية!

لعل هذه القراءة تغيرت في أعقاب إغتيال سليمان، وما قيل عن أن بوتين جاء الى دمشق لكي يطلب من الاسد التزام الحذر الشديد في تعاطيه مع ذلك الحدث المفصلي في الصراع الاميركي الايراني، وعدم المخاطرة في تعريض نفسه او بلده او القوات الروسية لأي تهديد، وبالتالي الاستعداد لواقع جديد يفرضه الضغط الاميركي الشديد على إيران، الذي قد يضطرها للخروج من سوريا، ما يزيد من حاجة النظام السوري الى الغطاء الروسي، العسكري والسياسي.

لم يكن اللقاء في دمشق بين رئيسين، ولا حتى بين قيادتي أركان جيشين. ولم يكن هناك حديث في السياسة، يتطلب في الشكل على الأقل حضور وزير خارجيتي البلدين، (برغم التهميش المفروض على دور وزارة الخارجية الروسية في الشأن السوري لمصلحة وزارة الدفاع وضباطها). كان العرض الذي قدمه وزير الدفاع الروسي وكبار قادة القوات الروسية في المقر السابق لقيادة الاركاب السورية، أمام رئيسهم بوتين وعلى مسمع الاسد ووزير دفاعه فقط، أشبه ما يكون بدعوة الى الرئيس السوري للانضباط التام في آليات العمل العسكري وتاليا السياسي الروسي في المرحلة المقبلة.

لم تكن تلك الدعوة هدف بوتين الوحيد. إغتيال سليمان ضربة موجعة للقيادة السورية من شأنها أن تزيد المسافة بين دمشق وطهران، لكنها ربما لن تقلص المسافة بين دمشق وموسكو، اللتين تتبادلان الكثير من الشكوك في نوايا رئيسين جمعتهما الصدفة.. ولن تجمعهما الخطط التي يجري إعدادها للانتخابات الرئاسية السورية المقررة في ربيع العام 2021.